

مقدمة

في السلوك الجمالي ودراسته على أساس تجريبي

اكتسب مصطلح «الجماليات» aesthetics معناه الحديث بالمصادفة، كما يذكر برلين الباحث التجريبي في «خصائص السلوك الجمالي». حيث إن المعنى الذي تشير إليه الكلمة، هو «الإدراك» to percieve، وذلك حينما حاول الفيلسوف الألماني باومجارتين القيام بفحص اكتساب المعرفة بواسطة الإدراك والتخيل، في مقابل اكتسابها عن طريق العقل والمنطق، فبينما كان باومجارتين يدرس السلوك المعرفي، وجد نفسه يناقش خصائص الشعر والفنون، وكان يستخدم كلمة aesthetics للإشارة إلى بعض تلك الخصائص. ومنذ ذلك الوقت، ظلت كلمة «استطيقا» مرتبطة بدراسة هذه الفنون إلى اليوم، بل وامتدت لتشمل أيضا، دراسة السلوك البشري الذي يتناولها أو يتعامل معها من خلال الدراسة أو الاستمتاع. (Berlyne, 1974, p.1).

ويتفق بيرلين مع فخرنر فيما يذهب إليه من أن الجماليات تُعرف أحيانا بأنها نظرية الإمتاع وعدم الإمتاع.

ويذهب مونرو، وهو باحث متخصص في السلوك الجمالي، يذهب إلى أن الموضوعين الأساسيين اللذين يتعاملان مع علم النفس الجمالي هما: الفنان المبدع كالمبدع أو صانع أو خالق، والموضوع الآخر هو المشاهد أو المستمع أو القارئ والمستخدم والناقد. ويعرف مونرو الفن بأنه: كل نشاط يتضمن الفنون البصرية والموسيقية والأدبية والمسرحية، أي كل أنواع المهارة والإنتاج، والتي تنتج نوعا من الخبرة الجمالية المشبعة من وجهة نظر الفنان، وتتضمن هذه الخبرة، التعبير والتوصيل للخبرات الوجدانية الخاصة بالفنان. (Monroe, 1963, p. 31)

والكتاب الذي بين أيدينا يحاول الاقتراب من موضوع السلوك الجمالي من منطلق سيكولوجي. وليس يغيب عن ذهن القارئ أن الكاتب متخصص أساسا في علم النفس،

ولذلك لا ينبغي للقارئ أن يتوقع مني حديثا عن الجوانب الفلسفية، أو النظريات التأملية، التي تناولت هذا الموضوع، فعلى الرغم من أهمية هذه النظريات والاتجاهات، وعلى الرغم من إنها كثيرا ما قدمت للباحثين التجريبيين أصول أفكارهم، وكثيرا ما زودتهم باستبصارات قيمة ساعدتهم على صياغة فروضهم، بل وعلى تفسير كثير من نتائجهم، على الرغم من كل ذلك، فإن اتجاهنا السيكولوجي المعتمد بقدر الممكن والمستطاع، على النتائج المتوفرة من تجارب ودراسات علم النفس الحديث، هي الأساس في منحنا، وهي المحك الذي سوف نلوذ به في ما سوف نعرضه من أفكار.

أما الجوانب الفلسفية التأملية، فإننا نعلم أن هناك باحثين متخصصين فيها، وقد قدموا بالفعل للمكتبة العربية، دراسات رائدة، نذكر منهم، على سبيل المثال لا الحصر، الدكتورة أميرة مطر، والدكتور فؤاد زكريا والدكتور محمد على أبو ريان والأستاذ مجاهد عبد المنعم مجاهد، بل وأساتذتنا في النقد الأدبي والفني أيضا ممن لهم إسهاماتهم في الكشف عن الكثير من الأسس الجمالية للإبداع في الأدب والفن، وهو ما يجعل ما يمكن أن نقدمه نحن في السياق الفلسفي بلا فائدة كبيرة، ونرى أننا، وقد ارتضينا لأنفسنا أن نمضي فيها تخصصنا فيه ونعرض شيئا يمكن أن يكون أكثر فائدة لنا وللقارئ، مما لو قدمنا إطارا تأمليا ليس من اختصاصنا.

والكتاب الذي نقدمه للقارئ، يتضمن ثلاثة أبواب:

الباب الأول: ويتضمن ثلاثة فصول تدور حول نظرة عامة لموضوع التذوق

الفصل الأول: وهو عن الخصائص العامة للتذوق الفني من منظور سيكولوجي.

الفصل الثاني: عن التذوق الفني عند المبدعين، وفيه محاولة للكشف عن السلوك التذوقي لدى المبدع نفسه، من حيث إنه يعتبر أول متذوق لعمله، من خلال عمليات الاستكشاف والتشكيل والاستمتاع.

الفصل الثالث: عن عملية التذوق الفني عند المتلقي، كيف تتم؟ وما هي أهم

العوامل المؤثرة فيها والموجهة لها؟

الباب الثاني: ويتضمن دراستين كمحاولة للكشف عن كيفية دراسة التذوق الفني دراسة تجريبية، باستخدام المدخل التجريبي والمادة العلمية المستمدة من الواقع، وقد كانت أداتنا لذلك، في إحدى الدراستين عددا من الرسوم الفنية أعدها مصورون في فن الكاريكاتير، وفي الدراسة الثانية كانت الصور عبارة عن رسوم بسيطة. وقد كان الهدف الأساسي من دراستنا التجريبية، هو محاولة الاقتراب من واقع التجربة الفنية لدى متلقى العمل الفني. وقد تضمن هذا الباب فصلين هما:

الفصل الأول: عن الجانب الجمالي في الرسالة الإعلامية، المتمثلة في الصورة «الكاريكاتيرية» في الصحيفة اليومية، وقد تم الاعتماد على توجيه إدراك المتلقى إلى عناصر معينة في الصورة، تشير إلى أبعادها الجمالية والمعرفية والوجدانية والاجتماعية، وقد تأكد لنا من خلال تحليل نتائج البحث، أن الجانب الجمالي، يمثل ثقلاً وأهمية كبيرة بالنسبة لتقدير المتلقى للرسالة.

الفصل الثاني: وهو عبارة عن دراسة تجريبية لتفضيل الأطفال للرسوم، والكشف عن أهم العوامل التي تؤثر على أسلوب تفضيل الأطفال للمنهيات الشكلية، وقد تم إجراء الدراسة على عدد من أطفال محافظة المنيا، بعضهم يقطن المدينة وبعضهم يقطن القرية، ومنهم نسبة من الذكور ونسبة من الإناث.

الباب الثالث: ويتضمن هذا الباب الأخير عددا من الفصول التي قدمت بعض المحاولات التطبيقية، للكشف عن كيفية الاستفادة من نتائج الدراسات النفسية وتوجيهها لترشيد السلوك التذوقى، بل ودفع السلوك العام في اتجاه الإفادة من ممارسة التذوق الفني. وقد ضم هذا الباب خمسة فصول هي:

الفصل الأول: المسرح كوسيلة اتصال:

وفيه نحاول أن نكشف عن إمكانات هذا الوسيط الفني، ودوره في ترشيد الطاقات الذهنية والدوافع الإيجابية لدى الإنسان، وهو ما يساهم في تشكيل إطار تذوقى جيد عند المتلقى، والذي بدوره لا يكون للحياة معنى ولا للوجود قيمة.

الفصل الثاني: عن أهمية المسرح بالنسبة للأطفال، وكيف يمكن من خلاله تنمية السلوك الإبداعي، والخصائص الجمالية لديهم.

الفصل الثالث: عن المسرح الشعري عند الأطفال، وقد ناقشنا فيه عملاً فنياً شعرياً، أعد خصيصاً للطفل، ذلك هو الإعداد الجديد لبعض أفكار وأعمال كامل كيلاني، والذي قام به الشاعر أحمد سويلم.

الفصل الرابع: عن الرفيق الخيالي كظاهرة سلوكية عند الأطفال، والإستمتاع بالأداء التمثيلي التلقائي لدى الأطفال. وقد حاولنا في هذا الفصل الكشف عن الطاقات الكامنة لدى الأطفال خاصة أثناء ممارستهم اللعب، والقيام بتأدية بعض المواقف التمثيلية بشكل تلقائي، وقد حاولنا الإشارة إلى إمكانية استثمار هذه الطاقة لدى الطفل مما يساعد على إثراء سلوكه على وجه العموم، وتوجهه نحو التذوق الفني على وجه الخصوص.

الفصل الخامس: وهو عبارة عن دراسة تطبيقية في تقويم الأعمال الفنية باستخدام المنهج الموضوعي، وقد كانت محاولتنا مع قصيدة شفق زهران للشاعر صلاح عبد الصبور. ولسنا نَدْعَى أن هذا الكتاب، قد جاء كاملاً مستوعباً لجميع الشرائط التي ينبغي توفرها في كتاب يدرس سيكولوجية التذوق الفني، وقد أشرنا بالفعل في عدد كبير من المواضيع، إلى ضرورة إجراء مزيد من الدراسات لاستكمال النقاط الناقصة أو من أجل مزيد من الاستكشاف لعدد من الخصائص الغامضة أو العوامل المجهولة. وكل ما يمكننا تقريره في هذا الموضوع، أن الدراسات والأفكار التي يضمها هذا الكتاب، إنما هي محاولات أردنا بها الاقتراب من موضوع ما زال بكراً، ليس في محيطنا العربي فحسب، بل وكذلك في المجال العالمي؛ وكل ما نرجوه أن يكون الكتاب بمثابة إضافة متواضعة للمكتبة العربية، وأن تتمكن من استكمال نقاط أخرى في المستقبل، وأن يكون عملنا بمثابة دعوة مخلصـة للمتخصصين، لكي يساهموا معنا في طرق جوانب هذا الموضوع.

ولكى لا ندع القارئ يتوه بين العناصر المتشعبة فإنه قد يكون من المناسب في المقام

الحالي، وقبل أن نتركه يخوض في بحر قد يبدو عاصفا لأول وهلة، قد يكون من المناسب تقديم فكرة موجزة عن الأساس النظري الكامن وراء معظم دراسات هذا الكتاب، والذي يمثل العمود الفقري لأغلب ما ورد فيه، هذا الأساس الذي أطلقنا عليه اسم الأساس النفسي الفعال، والذي رأينا أنه مفهوم قادر على تفسير السلوك الإنساني على نحو ما سوف نلاحظ فيما بعد.

إننا نذهب، بعد عديد من الدراسات النظرية «والإمبريقية»، إلى أن النشاط الإنساني يعتمد في درجة فاعليته على مدى إسهام أربعة عناصر رئيسية تعد هي المكونات الحقيقية له: هذه المكونات هي:

١ - **العنصر العقلي المعرفي:** وهو يضم بدوره قدرات وعمليات أخرى، مثل الأصالة والفهم والتخيل.. الخ

٢ - **العنصر الوجداني:** والذي يضم داخله عناصر أصغر، مثل الدوافع والعواطف والقيم والميول وخصائص الشخصية.. الخ.

٣ - **العنصر الثقافي الاجتماعي:** ويضم أسس تنشئة الفرد وما اكتسبه من المجتمع من عادات وقيم وأعراف وثقافة عامة، وما يعتنقه من مثل وما يحركه من أهداف... الخ.

٤ - **العنصر الجمالي الإيقاعي التعبيري:** وهو يضم خصائص التفضيل والتقويم والتشكيل، كما يتضمن الخصائص الإيقاعية في السلوك، كالسرعة والحدة والشدة، وهي خصائص إلى حد كبير ليست إرادية.

هذه المكونات الأربعة، لو حاولنا تطبيقها على أي سلوك، حتى ولو كان سلوك تناول الطعام، أو المناقشة العادية بين شخصين عاديين، أو سلوك المشي، فسوف نلاحظ أنها تفسر كثيرا من جوانب السلوك إن لم يكن كلها.

إنك حين تتحدث، تصوغ أفكارك في جمل ذات تراكيب معينة، وتنطقها بإيقاع معين، مستهدفا تأثيرا معيناً (الجانب الجمالي) وهذه الأفكار، مصاغة في لغة معينة، وفقا لتركيب معين، ومتشعبة بثقافة معينة (جانب اجتماعي ثقافي)، وهي تحمل مضمونا عقليا واضحا أو

غامضا أصيلا أو معتادا (جانب عقلى معرفي) كذلك هي ذات بطانة وجدانية خاصة: حب أو غضب، موافقة أو رفض، عنف أو رقة... الخ، (جانب انفعال وجداني)

كذلك فإن التدوق الفني - وهو نشاط إنساني أو سلوك بشري - يمكن أن نعثر فيه على هذه الجوانب الأربعة، كما سبق وعثرنا عليها في السلوك الإبداعي (حنورة، ١٩٨٠ ص ٢٢٧؛ ١٩٧٩ ص ١٦٧؛ ١٩٧٧ ص ٦٩؛ سويف، ١٩٧٠ ص ١٥٥).

وحين تتفاعل هذه الجوانب أو المكونات، فإنها تفرز لنا مقطعا من السلوك له تكامله الفريد، والذي لا يتطابق مع أى مقطع سلوكي عند أحد آخر من الناس ولا عند الشخص نفسه، مع إقرارنا بوجود أوجه للتشابه، سواء بين هذا المقطع السلوكي وما يصدر عن الفرد نفسه من أنشطة أخرى، أو بينه وبين ما يصدر عن الأفراد الآخرين، ولكن يظل لكل (مقطع) سلوكي تميزه الفريد، لأنه ابن لحظة معينة وظرف سلوكي معين وسياق اجتماعي قد انتهى.... الخ.

ولا يعني هذا، أن السلوك، بهذا التنوع والتفرد، لا توجد القواعد العامة أو القوانين التي تحكمه وتفسره.. كلا فإن التنوع والتفرد ليس إلا التنوع على اللحن الأساسي، وهذا ما سوف تكشف عنه الدراسات المختلفة في هذا الكتاب.

وهناك وجه آخر يمكن من خلاله الاقتراب بشكل دقيق من هذا السلوك، ألا وهو خضوعه لمبدأ الهرمية والتدرج في التكثيف والارتقاء.

فسلوك الطفل يكون هشا غير مدرب وغير حاذق، ثم يبدأ يكتسب خصائص التماسك بعد فترة، ثم في النهاية، عندما يمر بمراحل معينة من الصقل والتجويد، نلاحظ أنه وصل إلى الحذق والمهارة والبراعة. والسلوك والإبداع أيضا له هذه الخاصية يبدأ يمر بمرحلة التوجة العام الذي يعصم من التوزع والتشتت والتجريب، ثم يتجه إلى نوع من الاختزال في دائرة ضيقة، ما تلبث أن تصبح هي منطقة ابداع الشخص، ثم عندما يتوجه لانجاز عمل ابداعى معين، نلاحظ أنه يواجه الواقع بكل متغيراته، متسلحا بكل ما هو كامن في سلوكه من مهارات.

فإذا ما التقى المتجه الارتقائى للسلوك (ذو التوجه الرأسى) بدرجة معينة من درجات

الفاعلية مع المتجه التفاعلي للجوانب الأربعة المكونة للسلوك (ذى التوجه الأفقى) فى بؤرة واحدة، خرج إلى الوجود هذا الإفراز الجديد، الذى تطلق عليه اسم «المنتج الإبداعى» Creative product متميزاً بدرجة ما من درجات الإبداع، وفقاً لما هو موجود فى سلوك الشخص من خصائص، وما مر به من تدريبات، وما استقر فى بنائه النفسى من أطر وقوالب وأفكار.

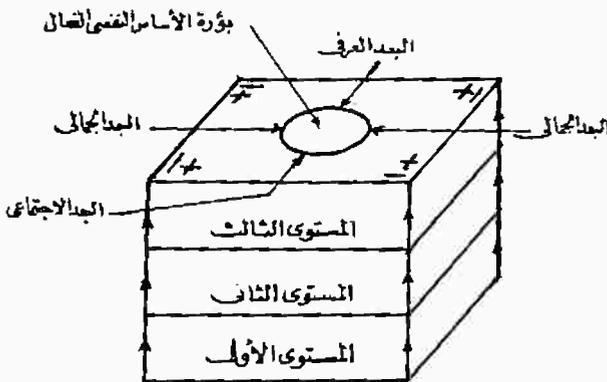
ونفس الأمر نجده فى التذوق الفنى، تلك العملية ذات الأوجه الأربعة:

١ - الوجه العقلى المعرفى: والذى يمثل البطانة المعرفية الاستدلالية الواعية القادرة على الفهم والمقارنة.

٢ - الوجه الجمالى: التقويمى التفضيلى التشكيلى الإيقاعى، الذى يجب أو لا يجب، يميل أو لا يميل، يفضل أو لا يفضل هذا العمل أو ذاك

٣ - الوجه الاجتماعى الثقافى: الذى يمثل البطانة الثقافية، التى تمد الفرد بمعايير وقواعد لتقبل أو رفض العمل.

٤ - الوجه الوجدانى الذى يعبر عن درجة الرضا والميل إلى الانفعال «بالعمل الفنى».



نموذج للأساس النفسى الفعال

وهذه الأوجه الأربعة، ليست حالة استاتيكية توجد مع الفرد منذ الميلاد بنفس الصورة وإلى أن يموت، كلا، إنها ترتقى وتنضج، وقد تتدهور أيضا، كما أنها دينامية، أى لها وجهها التفاعلى فيما بينها، وفيما بينها وبين المنبهات الخارجية التى ترد إلى الفرد من البيئة الخارجية، كذلك فهى تتأثر بالمنبهات الداخلية، التى تنشأ داخل الفرد نفسه عضويا أو سيكولوجيا. كذلك فإنها تخضع لمبدأ الهرمية أى التوجه الرأسى من العام إلى الخاص إلى الشديد الخصوصية، أى التعامل مع عمل فنى محدد فى لحظة معينة وموضع محدد.

وليس من هدفنا فى هذه المقدمة، شرح فكرتنا عن السلوك الإنسانى عموما، أو التذوق الفنى خصوصا، ولكننا أردنا فحسب، أن تكون بمثابة المدخل أو التمهيد، الذى يمكن أن يمد القارئ ببعض الوضوح لما سوف يقابله بعد ذلك من أفكار فى سياق الكتاب، هذا الكتاب، الذى نرجو أن يكون بمثابة لبنة فى بناء الثقافة المعاصرة.

د. مصرى عبد الحميد حنورة

رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس

كلية الآداب بجامعة المنيا.

مراجع المقدمة

- حنورة، مصرى (١٩٨٠) الأسس الفنية للإبداع الفنى فى المسرحية، دار المعارف، القاهرة.
- (١٩٧٩) الأسس الفنية للإبداع الفنى فى الرواية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
- (١٩٧٧) الخلق الفنى، دار المعارف، القاهرة.
- سوفى، مصطفى (١٩٧٠) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة.
- Berlyne, D, E, (1974) *Studies in the new Experimental aesthetics*, Hemisphere publishing, Wwashington.
- Monroe, T. (1963) The psychology of Art., past, present and future, *Jour Aesth. Art. critic.*, 21, 264 — 283.